الجزء الثاني (المجلد الرابع)

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً وما يذكر الا اولو الالباب

المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله واولئك هم اولو الالباب

(قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « مناراً » كمنار الطريق)

(مصر في يوم الخميس ١٦ ذي القعدة سنة ١٣١٨ — ٧ مارث (اذار) سنة ١٩٠١)

الفضائل والرذائل (١)

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ

قالوا للانسان كمال مفروض عليه ان يسعى اليه ، وقالوا انه عرضة لنقص يجب عليه الترفع عنه ، وقالوا كماله في استيفاء ما يمكن من الفضائل، ونقصه في التلوث برذيلة من الرذائل ، فما هي الفضائل وما هي الرذائل؟؟

الفضائل سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها كالسخاء والعفة والحياء ونحوها فالسخيان لا يتشاحان ولا يتنازعان في التعامل فان من سجية كل منهما البذل في الحق والمنع اذا اقتضاه الحق فكل يعرف حده فيقف عنده فلا يوجد موضوع للنزاع عند معاطاة الاعمال المالية . والاعفاء لا يتزاحمون على مشتهى من المشتهيات فان من خلق كل منهم التجافي عن الشهوة وفي طبيعته الايثار بالرغائب وهكذا اذا استقريت جميع ما عده علماء التهذيب من الصفات الفاضلة تجد ان من لوازم

(١) مقالة من العروة الوثقى والعنوان لنا

كل فضيلة منها التأليف بين المتصفين بها فى متعلق الاثر الناشئ عن تلك الفضيلة فاذا اجتمعت الفضائل او غلبت فى شخصين مالت نفوسهما الى الاتحاد والالتئام فى جميع الاعمال والمقاصد او جلها ودامت الوحدة بينهما بمقدار رسوخ الفضيلة فيهما وعلى هذا النحو يكون الامر فى الاشخاص الكثيرة . فالفضائل هى مناط الوحدة بين الهيئة الاجتماعية وعروة الاتحاد بين الآحاد تميل بكل منهما الى الآخر وتجذب الآخر الى من يشاكله حتى يكون الجمهور من الناس كواحد منهم يتحرك بارادة واحدة ويطلب فى حركته غاية واحدة .

مجموع الفضائل هو العدل فى جميع الاعمال فاذا شمل طائفة من نوع الانسان وقف بكل من آحادها عند حده فى عمله لا يتجاوزه بما يمس حقاً للآخر فبه يكون التكافؤ والتوازر . لكل شخص من افراد الانسان وجودٌ خاص به واودعت فيه العناية الآلهية من القوى ما به يحفظ وجوده وما به التناسل لبقاء النوع وهو فى هذا يساوى سائر افراد الحيوان لكن قضت حكمة الله ان يكون الانسان ممتازاً عن بقية الانواع الحيوانية بكون آخر ووجود أرق وأعلى وهو كون الاجتماع حتى يتألف من افراده الكثيرة بنية واحدة يعمها اسم واحد والافراد فيها كاعضاء تختلف فى الوظائف والاشكال وانما كل يؤدي عمله لبقاء البنية الجامعة وتقويتها وتوفير حظها من الوجود ليعود اليه نصيب من عملها الكلي " كما اودع الله فى اعضاء أبداننا وبنيتنا الشخصية . والفضائل فى المجتمع الانسانى كقوة الحياة المستكملة فى كل عضو ما يقدره على أداء عمله مع الوقوف عند حد وظيفته كاليد بها البطش والتناول وليس بها الابصار والعين بها الابصار وتمييز

الاشكال والالوان وليس من وظائفها البطش والكل حي بحياة واحدة وان شئت قلت : الفضائل فى عالم الانسان كالجذبة العامة فى العالم الكبير فكما ان الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات وبالتوازن فى الجاذبية ثبت كل كوكب فى مركزه وحفظت النسبة بينه وبين الكواكب الأخر وانتظم بها سيره فى مداره الخاص بتقدير العزيز العليم حتى تمت حكمة الله فى وجود الاكوان وبقائها . كذلك شأن الفضائل فى الاجتماع الانسانى بها يحفظ الله الوجود الشخصيّ الى الاجل المحدود ويثبت البقاء النوعي الى ان يأتى أمر الله

أيّ امةّ يكون الواضع فيها والرافع ، والحارس والوازع ، والجالب والدافع ، وجميع من يدبر امورها ، ويسوسها فى شؤنها ، انما هم افراد منها من هاماتها او من لهازمها (من الاعلياء او الاوساط بل وسائر الاطراف) ويكون كل واحد منها قائماً بحق الكل ولا يختار مقصداً يعاكس مقصد الكل ولا يسعى الى غاية تميل به عن غاية الكل ولا يهمل عملاً يتعلق بالامة حتى يكون الجميع كالبنيان المتين لا تزعزعه العواصف ولا تدكه الزلازل وبقوة كل منهم يجتمع للامة قوة تحفظ بها موقعها وتدفع بها عن شرفها ومجدها وترد غارة الاغيار فهى الامة التى سادت فيها الفضائل واستعلت فيها مكارم الاخلاق .

ان امة هذا شأنها لا يتخالف افرادها الا للتآلف ولا يتغايرون الا للاتحاد فمثلهم فى اختلاف اعمالهم كمثل المتدابرين على محيط دائرة يتفارقان فى مبدإ السير ليتلاقيا على نقطة من المحيط ومثالهم فى تغاير مآخذهم لجلب منافعهم كجاذبي طرف خيطة واحدة (حبل واحد) كل آخذ بطرف مع تعادل القوتين ففى جذب احدهما لصاحبه ابعاد لنفسه عنه من وجه . وحفظ

لمكان قربه منه من وجه آخر فلا يفترقان ولا يتباينان ولا تفنى منفعة احدهما فى منفعة الآخر . أما ان مسالك الافراد من هذه الامة عما منحوه من الارتباط بينهم تكون كانصاف دائرة مركزها حياة الامة وعظمتها ولا يخرج ولا واحد منهم عن محيط الجنسية وانهم فى جلب منافعها واستكمال فوائدها كالجداول تمد البحر لتستمد منه .

يرى كل واحد منهم ان ما تبتهج به النفوس البشرية وتمتاز بالميل اليه عن سائر الحيوانات من رفعة المكانة والغلب وبسط الجاه ونفاذ الكلمة انما يمكن نواله اذا توفر للامة حظها من هذه المزايا فيسعى جهده لابلاغ كل واحد من الامة أقصى مايؤهله استعداده ليأخذ بسهم مما يناله فلا يهمل ولا يخون فى الدفاع عن فرد من افرادها فضلاً عن هيئتها العامة والا فقد خان نفسه لانه ابطل آلة من آلات عمله وقطع سبباً من اسباب غايته ولا يحتقر واحداً من الآحاد ولا يزدري بعمله ويحسب الشخص من الامة وان كان صغيراً بمنزلة مسمار صغير فى آلة كبيرة لو سقط منها تعطلت الآلة بسقوطه .

عليك ان تنظر فى حقائق هذه الصفات الفاضلة لتحكم بما ينشأ عنها من الاثر الذى بيناه — التعقل والتروّي وانطلاق الفكر من قيود الاوهام والعفة والسخاء والقناعة والدماثة (لين الجانب) والوقار والتواضع وعظم الهمة والصبر والحلم والشجاعة والايثار (تقديم الغير بالمنفعة على النفس) والنجدة والسماحة والصدق والوفاء والامانة وسلامة الصدر من الحقد والحسد والعفو والرفق والمروءة والحمية وحب العدالة والشفقة — أترى لو عمت هذه الصفات الجليلة امة من الامم او غلبت فى افرادها يكون بينها سوى

الاتحاد والالتئام التام ؟ هل يوجد مثار للخلاف والتنافر بين عاقلين حرين صادقين وفيين كريمين شجاعين رفيقين صابرين حلمين متواضعين وَقُورَين عفيفين رحيمين ؟ . اما والله لو نفخت نسمة من ارواح هذه الفضائل على ارض قوم وكانت مواتاً لأحيتها ، اوقفراً لأنبتتها ، أو جدباً لامطرتها من غيث الرحمة مايسبغ نعمة الله عليها ، ولاقامت لها من الوحدة سياجاً لايخرق ، وحرزاً منيعاً لا يهتك ، وان اولى الامم بان تبلغ الكمال في هذه السجايا الشريفة أمة قال نبيهم : انما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق . الفضيلة حياة الامم تصون اجسامها عن تداخل العناصر الغريبة وتحفظها من الانحلال المؤدى الى الزوال . « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون »

اما الرذائل فهي كيفيات خبيثة تعرض للأنفس من طبيعتها التحليل والتفريق بين النفوس المتكيفة بها كالقحة (قلة الحياء) والبذاء (التطاول على الاعراض بما لا تقتضيه الحشمة والادب من الكلام) والسفه والبله والطيش والتهور والجبن والدناءة والجزع والحقد والحسد والكبرياء والعجب واللجاج والسخرية والغدر والخيانة والكذب والنفاق . فايّ صفة من هذه الصفات تلوث بها نفسان ألقت بينهما العداوة والبغضاء وذهبت بهما مذاهب الخلاف الى حيث لا يبقى أمل في الوفاق فان طبيعة كل منهما إما مجاوزة الحدود في التعدى على الحقوق واما السقوط الى ما لا يمكن معه للشخص أداء الواجب لمن يشاركه في الجنسية او الملية او القبيلة او العشيرة او باي نوع من انواع التعامل والانسان مجبول بالطبع على النفرة ممن يتعدّى على حقوقه او يمنعه حقاً منها . وان شئت فتخيّل وقحين بذيئين سفيهين جبانين بخيلين (كل منهما يمنع الآخر حقه) شرهين حاقدين

حاسدين متكبرين (كل لا يستحسن الا فعل نفسه) لجوجين خائنين غادرين كاذبين منافقين هل يمكن ان يجمعهما مقصد او توحّد بينهما غاية ؟ أليس كل وصف على حدته قاضياً بانتباذ كل من صاحبه وان لم تكن داعية ؟ وكفى بمخالفه وصفته باعثاً قوياً للتنابذ .

هذه الرذائل اذا فشت فى امة نقضت بناءها . ونثرت اعضاءها . وبددتها شذر مذر واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعى ان تسطو على هذه الامة قوة اجنبية عنها لتأخذها بالقهر ، وتصرفها فى اعمال الحياة بالقسر ، فان حاجاتهم فى المعيشة طالبة للاجتماع وهو لا يمكن مع هذه الاوصاف ولا بد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع الى حد الضرورة . هذه صفات إذا رسخت فى نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديداً تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . تراهم اعزة بعضهم على بعض اذلة للاجنبي عنهم يدعون اعداءهم للسيادة عليهم ، ويفتخرون بالانتماء اليهم ، يمهدون السبل للغالبين الى النكاية بهم ، ويمكنون مخالب المغتالين من احشائهم . ويرون كل حسن من ابناء جنسهم قبيحاً ، وكل جليل منهم حقيراً ، اذا نطق اجنبي بما يدور على ألسنة صبيانهم عدوه من جوامع الكلم ، ونفائس الحكم ، واذا غاص احدهم بحر الوجود واستخرج لهم درر الحقائق وكشف لهم دقائق الاسرار عدوه من سقط المتاع وقالوا بلسان حالهم او مقالهم ليس فى الامكان ان يكون منا عارف ومن المحال ان يوجد بيننا خبير . ويغلب عليهم حب الفخفخة والفخر الكاذب ويتنافسون فى سفاسف الامور ودنياتها . يرتابون فى نصح الناصحين ، وان قامت على صدقهم اقطع البراهين ، يسخرون بالواعظين ، وان كانوا فى طلب خيرهم من اخلص

المخاصين، يبذلون جهدهم لخيبة من يسعى لاعلاء شأنهم، وجمع كلمتهم، ويقعدون له بكل سبيل يقيمون فى طريقه العقبات، ويهيئون له اسباب العثار، تراهم بتضارب اخلاقهم، وتعاكس اطوارهم، كالبدن المصاب بالفالج لا تنتظم لاعضائه حركة ولا يمكن تحريك عضو منه على وجه مخصوص لمقصد معلوم فتنفات اعمالهم عن حد الضبط، وتخرج عن قواعد الربط، فساد طباعهم بهذه الاخلاق يجعلهم منبعاً للشر، ومبعثاً للضر، يصير الواحد منهم كالكلب الكلِب اول ما يبدأ بعض صاحبه قبل الاجنبي بل كالمبتلى بجنون مطبق اول ما يفتك بمربيه ومهذبه، ثم يثني بطبيبه ومعالج دائه، تكون الآحاد منهم كالامراض الاكالة من نحو الجذام والآكلة يمزقون الامة قطعاً وجذاذات بعد ما يشوهون وجهها، ويشوشون هيئتها، أولئك قوم يسامون فى مراعى الدنايا والخسايس لتغلب النذالة على سائر اوصافهم فيتفجون على ابناء جلدتهم ويذلون لقزم الاجانب فضلاً عن عليتهم وبهذا يمكنون الذلة فى نفوسهم لمن دونهم ويطبعونها على الخضوع للغرباء بل الاعداء الالداء من طبقة الى طبقة حتى تضمحل الامة وتنسخ هيئتها وتفنى فى أمة او ملة اخرى سنة الله فى تبدل الدول وفناء الامم «وكذلك أخذُ ربك إذا أخذَ القرَى وهى ظالمةٌ ان أخذَه أليمٌ شديد» (اعاذنا الله من هذه العاقبة وحرس امتنا وملتنا من المصير الى هذه النهاية).

بقيت لنا لمحة نظر الى ما به تقتنى الفضائل، وتمحص النفوس من الرذائل، حتى تستعد الجمعيات البشرية الى الاتحاد، وتصون به أكوانها من الفساد، : كل مولود يولد على الفطرة، مادةٌ مستعدة لقبول كل شكل،

والتلون بأي لون ، فهل ينال كمال الفضيلة من آبائه واسلافه ؟ أنّى يكون لهم حظ منها وقد كانوا ناشئين على مثل مانشأ عليه وَليدهم . يرشدنا رائد الحق الى ان الاعتدال في أصول الاخلاق والتحلي بحلية الفضائل وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بآثارها إنما يكون بالدين ولن يتم أثر الدين في نفوس الآخذين به فيصيبوا حظاً وافراً مما يرشد اليه فيتمتعوا بحياة طيبة وعيشة مرضية الا اذا قام رؤساء الدين وحملته وحفظته بأداء وظائفهم من تبيين أوامره ونواهيه وتثبيتها في العقول ودعوة الناس الى العمل بها ، وتنبيه الغافلين عن رعايتها ، وتذكير الساهين عن هديها . أما اذا اهمل خدمة الدين وظائفهم أو تهاونوا في تأدية أعمالها ضعف اليقين في النفوس وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية واظلمت البصائر بالغفلة وتحكمت الشهوات البهيمية وتسلطت الحاجات المعاشية ومال ميزان الاختيار مع الهوى فخسرت الى الانفس أوفاد الرذائل فيحق على الناس كلمة العذاب ويحل بهم من الشقاء ما أشرنا اليه سابقاً .

هذه علل الخراب في كل امة ولقد ظهر أثرها في امم لا تحصى عدداً من بداية كون الانسان الى الآن ولم يزل آثار بعضها يشهد على ما فتكت به الرذائل بعد ما بدّلوا وغيّروا كما في طائفة (الدهيرومنك) من سكنة الاقطار الهندية المعروفين عند الاوربيين بطائفة (باريا) « قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » فالدين هو السائق الى السعادة في الدنيا كما يسوق اليها في الآخرة .

تقلب قلب الدهر على بعض طوائف من المسلمين في اقطار مختلفة من الارض وسلبهم تيجان عزّهم وألقاها على هامات قوم آخرين واليوم ينازع

طوائف اخرى ولا نخاله يتغلب عليهم فكشف هذا عن نوع من الضعف ولا يكون ناشئاً الا عن شيء من الاهمال في اتباع اوامر الشرع الاسلامي ونواهيه بحكم قول الله في كتابه « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وقد يكون ذلك وربما لا ينكر الآن ان كثيراً من عامة المسلمين وان صحت عقائدهم من حيث ما تعلق به الاعتقاد الا انهم لا ينهجون في بعض اعمالهم منهاج الشريعة الغراء وهذا مما يحدث ضعفاً في الامة بقدر الميل عن جادة الاعتدال في الفضائل والاعمال « وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم » .

الا ان المسلمين لم يزالوا على اصول الفضائل الموروثة عن اسلافهم ولهم حسن الاذعان لما جاء به شرعهم وكتاب الله متلوٌّ على السنتهم وسنة نبيهم يتناقلونها رواية ودراية وسير الخلفاء الراشدين والسلف الصالح مرسومة على صفحات نفوس الخاصة منهم فليس ما طرأ على بعضهم من الغفلة عن متابعة الشرع وما تسبب عنه من الضعف في القوة الا عرضا لا يبقى وحالاً لا يدوم .

انظر نظرة انصاف الى ما اودعته آيات القرآن من غرر الفضائل وكرائم الشيم والى حرص المسلمين على احترام كتابهم وتجليله تجد من نفسك حكماً باتاً بأن علماء الديانة الاسلامية لو نشطوا لأداء وظائفهم المفروضة عليهم بحكم وراثتهم لصاحب الشرع والمحتومة على ذمتهم بأمر الله الموجه الى الذين يعقلونه وهم هم في قوله الحق « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » وبالحض الالهي المفهوم من قوله « فلولا نفر من كل فرقة

منهم (المؤمنين) طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » ولو قاموا يعظون العامة بما ينطق به القرآن ويذكرونهم بما كان عليه صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الناهجون على سنته من الاخلاق المحمودة والاعمال المبرورة لرأيت الامة الاسلامية ناشطة من عقالها متضافرة على اعادة مجدها وصيانة ولايتها العامة من الضعف وبيضة دينها من الصدع كل ذلك فى اقرب وقت ولن تكون الا صيحة واحدة فاذاهم قيام ينظرون .

ولا ريب ان الراسخين فى العلم من اهل الدين الاسلامى يعلمون أن ما أصيب به المسلمون فى هذه الازمان الاخيرة انما هو مما امتحنهم الله به جزاءً على بعض مافرطوا وليس للناس على الله حجة فالرجاء فى هممهم وغيرتهم الدينية وحميتهم الملية ان يوجهوا العناية الى رتق الفتق قبل اتساعه ومداواة العلة قبل استحكامها فيذكروا أبناء الملة باحكام الله ويحكموا بينهم روابط الاخوة والالفة كما أمر الله فى كتابه وعلى لسان نبيه ويبذلوا الجهد لمحو اليأس والقنوط الذي ملك أفئدة البعض منهم ويقنعوهم بأنه لا ييأس من لطف الا الذين فى قلوبهم مرض وفى عقائدهم زيغ ويسيروا بهم فى سبيل يجمع كلمتهم ويوحد وجهتهم ويقوى فيهم اباءة الضيم والنفرة من الذل ويحرك فيهم روح الانفة حتى لا تسمح نفس أحدهم ان يأتي الدنيَّة فى دينه ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعده الحق فى قوله : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين »